عبد الرحمان الموساوي

مكونات الخطـاب السلفـي

(نموذج من محمد عبـده)

مدخــــل :

ظل فهم معين للقول، طيلة عصور متلاحقة، وربما إلى أيامنا هذه مسيطرا وهو يتسم بمعيارية وتراتبية، تنظر إلى القول من حيث يستجيب لمقولات خارج إطار الواقع، ووفق نموذج يتعالى على الزمان والمكان، فظلت الرؤية مطلقة تشده إلى النموذج شدا، وتديره في حلقته وتحدد أفقه ضمن منظوره. وقد ارتكزت هذه النظرة على موقف وثقي وأصولي. عزل النص عن كل علاقاته وحوله إلى بنية مغلقة قائمة بذاتها متعالية على شروطها، وكأن النص يمثل في حد ذاته حقيقة مطلقة، وكل قراءة ليست إلا تعبدا في محرابه، أو تلذذا بطاقته الحيوية.

إن بدء التحرر من المفهوم ينطلق من نقده، والكشف عن دلالته المعرفية والسياسية، ومن هنا لا يتأتى النظر في القول بما هو قول، بل ينبغي النظر أساسا لعلاقات انتاجه وتعدد ابعاده، فيتصحح وضعه ضمن النظام وعلاقات النظام وقيمه وشروطه. ومن ثم فإن كل كتابة تفترض بالضرورة علاقة هي في أحد مستوياتها :

كتابة ــ قراءة // انتاج ــ استهلاك.

والذي يحدد خصوصيتها ليس مقوماتها فحسب بل ــ ولعله هو الاساس ــ القراءة.

إن أدبية النص لا تضفيها عليه ممارسة المبدع له ولا قصده ولا نيته، وإنما يضفيها عليه المجتمع المستهلك لهذا النتاج والخالق لقيمه، والمتمثل لوعيه من خلاله، حين يدخل في علاقة معه، متجاوزاً بذلك علاقته الخصوصية بصاحبه.

ما أنتجه محمد عبده يدخل ضمن هذه الرؤية، ولا يتأتى فصل دلالته الأدبية عن بنيته الفكرية إلا حين يتأتى الفصل بين الخطاب ومحتواه. وليس مهما دائما أن نقول ما قيل، وانما المهم أن نقول كيف ولماذا قيل، الأمر الذي يتيح استخلاص نتائج التحليل من خلال مقومات النظام. فالقول معبر بمكوناته حين يقول، ومعبر أيضا حين يصمت، بل يمكن اعتبار القول أحيانا وسيلة لاخفاء أو تشويه أو تعكير أو تغطية ما أراد أن يقوله. وتكون آليته تبعا لذلك تجلية بنية لتغطية أخرى. ودور التحليل يبدأ عند محاولة تجلية ما هو خفي لتنكشف أدبية النص.

والذي يظهر أن الاعتقاد في طبيعة أدبية مطلقة لأدبية النص انما يقع في الوهم أو ضمن التصور الايديولوجي، وعلى المستوى الواقعي فإن تحول النظرة ونسبيتها هو القانون، فكم من خطاب لم يكن موضوع قراءة أدبية الا في مرحلة تالية على إنتاجه. وإذا كان ممكنا الآن مطارحة ذلك فإن التعامل مع الخطاب السلفي سيؤدي إلى تأطيره ضمن هذا التصور وتمكن قراءته بهذا المعنى، وللتدليل على ذلك نورد نصا لمحمد عبده من العروة الوثقى (ص 41، 42 — دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى — فبراير 1970).

«خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت، أوغل الأقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحتمله النفوس البشرية.

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم، ويغري به شيطان الخيال. فظنوا ان القوة الآلية وإن قل عمالها يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها. بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير، في النزر اليسير، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان، فإن تقلبات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إذا ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمان من الأزمان امحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة وإن بلغت القوة اقصى ما يمثله الخيال.

والحكم الذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه إلى اليوم إن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة، وغفلة في عاقبة لا تحمد، أو ركون إلى راحة لا تدوم، أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه، فإذا توالت عليها وخزات الحوادث، وأقلقتها آلامها فزعت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود، ولم تجد بدأ من طلب النجاة من أي سبيل وعند ذاك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالتآم أفرادها، والتحام آحادها، وأن الالهام الالاهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ترشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها.

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت إذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان فإذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها، واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها، والتمست خلاصها، ولن تعدم عند الطلب رشاداً».

التحليلُ : مكونات التركيب ودلالتها

يلاحظ من خلال المكون القاعدي، في إطار النظام وعلى مستوى وحداته المتمفصلة دلاليا:

1 ــ المركبات الفعلية تشكل البنية الاساسية للنص تبلغ حد تسعين في المائة (90%)، وغياب المركب الاضافي، أما المركب الاسمي الذي يشكل النسبة الباقية (10%) فالملاحظ أنه ضمن علاقة الاسناد تتلاشى طبيعته المفهومية الثابتة أمام الطرف الثاني في الاسناد الذي هو الفعل، مما يمكن معه، حين القيام بعملية التحويل استخلاص بنية مقولية واحدة أساسية هي : فعل + فاعل + مفعول أي حدث يقع في الزمن من طرف ذات على ذات أخرى.

2 ــ إذا نظرنا إلى علاقة الفعل في زمن حدوثه نجد غلبة مطلقة لبنية الماضي وغيابا للمستقبل، وحتى بنية الحاضر في بعض مكوناتها تتحول إلى الماضي بواسطة «لم» التي تقلبها، بهذا يمكن القول إن التوجه كله يقع نحو الماضي.

3 ــ يلاحظ أنه يقع إسناد الافعال التي يحدثها الآخر إلى الماضي، وبنفس الصورة التي يقع بها الحديث عن الذات من خلال ما كانت عليه لاخفاء ما هي عليه في الحاضر.

4 ــ وردت في النص ثلاثة مركبات مكممة بصيغ شرطية، وتظهر فيها العلاقة الاسنادية في طرفها الأيمن مانعة للحدث، وفي الايسر مقررة لوجود المانع. وباعطائها دلالتها نجدها تقرر وجود القوة لدى المسلمين نافية عنهم الضعف بسبب الوحدة، وعكسيا نافية القوة عن الغرب كواقع حاضر، وناسبة هذه القوة للمسلمين كماض.

5ــ إن انتظام البنيات بعد تحويلها من المكون التركيبي الى المكون الدلالي وما يتركه من أثر على بنية الدلالة، يجعلنا ننتهي الى ملاحظة ما يلي : هناك باستمرار علاقة ثلاثية تتجلى في الصورة الآتية :

ذات ــ وعــي ــ آخــر
مــاض ــ حاضــر ــ مستقبل
إسلام ــ عقــل ــ منفعة
إقطاع ــ طبقة وسطى ــ برجوازية

وبهذا المعنى يمكن القول إن النص حين يتجلى : يظهر العلاقة التالية : ماض يصارع حاضرا : ويكون التوجه بالخطاب من خلال هذه العلاقة إلى المجتمع الاسلامي، وحين يختفي يعطينا هذه العلاقة : حاضر يتبنى مستقبلا، ويكون التوجه بالخطاب إلى الغرب.

6 ــ يؤكد هذا الاستنتاج علاقة بنية المعجم بالحقل الدلالي، إذ أن انتظاميته ثنائية الاطراف وثنائية المواقع، تجعله يتراوح بين حقلين دلاليين كل منهما يحدد مجاله بعزله عن الآخر، أو بالنظر اليه، أو بالتقابل معه ويظهر ذلك في التبنين التالي :

أقوياء ــ ضعفاء؛ فكر ــ سحر؛ اليسر ــ الفقر؛ العقل ــ الخيال؛ الاجتماع ــ التاريخ؛ تنبيه ــ غفلة؛ الموجود ــ المفقود؛ العقل ــ الالهام الالاهي؛ الاجتماع الانساني ــ الاحساس الفطري؛ التاريخ ــ التعليم الشرعي.

إن الحقل الدلالي الذي تنتمي اليه مجموعة الوحدات المعجمية المكونة للطرف الاول في العلاقة هو التراث الماضي، وبالنظر إلى أصولها فإنه يمكن القول بأنها تحمل دلالة فكرية تنتمي لنسق تقليدي، غيبي متخلف، وبصفة عامة تنتمي تاريخيا لمرحلة غير الحاضر، وأسسه المعرفية عاجزة عن ادراك الواقع والتحكم فيه، بخلاف الطرف الأخر الذي يثبت يوما بعد يوم حضوره وفاعليته وتحكمه في الواقع. إن العلاقة، من خلال الانتظام، وبالشكل الذي طرحها به النص، تظهر التفوق المطلق لأحد الطرفين والضعف المطلق للطرف الأخر. وتظهر دلالة الانتظام من خلال التمسك بالقيم التقليدية القديمة وهذا ما أراد النص إظهاره، ومن خلال ما يخفيه وهو تبني القيم الليبرالية والتبشير بسيادتها مستقبلا. وليس ممكنا، والوضع على ما هو عليه، إلا إخفاء أهداف بواسطة نظام القول وتجلية أهداف مناقضة لها من خلال القول، ويؤكد هذا مستوى آخر من التحليل. تظهر بنية الوحدات الصغرى من خلال الملاحظات التالية :

أ ــ الاكثار من «ال» التي تفيد التعريف ظاهريا، وتوهم بالحديث عن شيء محدد وواقعي، بينما دلالتها التعميم والشمول والخارجية أو المسكوت عنه

ب ــ النكرات وما تفيده من ابهام لدى المتلقي، أو في بنية الخطاب وما يستنتج تبعا لذلك من تعمية والتباس.

ج ــ استعمال الضمائر ومنذ الوهلة الاولى دون التصريح بما هو مضمر.

فالتماس هذه التقنيات اللغوية لا يعدو كونه تغطية لشيء لا يريد التصريح به لأنه ليس من مصلحته ذلك.

7 ــ إن الشكل المجمّع لهذه البنيات وما تتضمنه من قيم هو شكل «المقالة»، ويبدو للوهلة الأولى أن هذا الشكل تراثي يدخل ضمن أحياء التراث. ولكن الشيء الذي ينبغي الاشارة اليه هو ما يحمله الشكل من قيم. واعتقد أن مصدر هذه القيم هو الغرب، لا بمفهومه التقني المجرد، وانما بنظامه. فالمقالة توحي بمركزية المعرفة، وأحادية التصور، وجدالية الطرح، وتوتُّر الزمن، وموضوعية التحليل، وموضعة الذات. وقد ساهم محمد عبده مساهمة كبيرة في تطوير المقالة وتطويعها لنقل مفاهيمه واستغل لذلك الصحافة خصُوصا.

ويلفت النظر في هذا الصدد المفارقة التي يحملها الشكل باعتبار ما أشير اليه قبل، وما عليه الواقع : الوعي الممزق، وطبيعة الصراع الذي تكون الذات أحد أطرافه، مما لا يتيح رؤية موضوعية للصراع، وبالتالي فإن تحليله عقليا لن يؤدي الا إلى تركيبة ايديولوجية ويكون بالتالي شكل الرواية أكثر تطابقا مع الوضعية المأساوية التي يعيشها المجتمع الاسلامي، وهوشيء سينتبه اليه تلامذة محمد عبده لكنهم لن ينتبهوا إلى أن الرواية بنية مجتمع غير متحقق لديهم إلا في صورة الوهم مما سيجعل بنيتها أيضا وهمية وخفيفة.وهي نفس الوظيفة التي أسندت للغة، في مفهومها العام، حين التمس النص لغة تراثية للتعبير عن مضمون جديد فالتبس بها وأخفته حتى تعطيه صفته الأدبية وبمعنى آخر صفته الايديولوجية.

نتائج التحليـل :

1 ــ إن اشكالية النص تتلخص في : كيف يمكن أن نكون ليبيراليين دون أن نفقد هويتنا من جهة ودون أن نكشف عن ليبيراليتنا من جهة أخرى.

2 ــ التمس النص لحل هذه الاشكالية تمجيد الماضي والتراث واستغل لاخفاء علاقته بالليبرالية الادوات والتقنيات الشكلية.

3ــ يطرح النص تناقضا رئيسيا مع الغرب في الظاهر وثانويا مع التراث، وفي العمق يظهر العكس، إذ التناقض الرئيسي موجود مع التراث كعائق على اكتساب القيم الليبيرالية.

4 ــ تتمثل الأزمة في النص في عدة مستويات : يخفي شعورا بالخيبة، ويتحسس الطريق المسدود، ويتخوف من المستقبل، ويستشعر مرارة العجز، ويصعد ذلك في لهجة ظاهرها دفاع وعمقها تبرير.

5 ــ إن كل الغطاء الايديولوجي، ليس في النهاية، إلا غطاء يحمل مشاريع كبرى، ولكنه يمثل على مستوى التنفيذ، تنازلات وتصالحات ومهادنات.

6 ــ إن الأزمة في النص تمثل أزمة في الوعي، وهذه تعكس أزمة الطبقة الوسطى التي افرزت هذا الوعي.

7 ــ إن الطبقة الوسطى الممثلة لهذه الذهنية ما كان ممكنا أن تعطي الا فكرا يغطي ويخفي علاقته العضوية، ومصالحه الاقتصادية والسياسية المرتبطة بالغرب، ويظهر نفسه في صيغة المدافع عن التراث وعن الاسلام.

8 ــ إن عمومية النص تخفي خصوصيته الطبقية.

9 ــ يظهر من خلال مفهوم «سلفية» توجه الى السلف، وهذا ما كان يهم هذا الفكر لما في هذا الشعار من لفت النظر إلى الماضي وصرفه عن الواقع، وبه يكون أكثر تطابقا مع ذاته. فهو إذاً شعار تتجلى فيه الماضوية ويخفي المستقبلية.

10 ــ إن المشروع السلفي في ظاهره ثقافي وفي عمقه سياسي، وعندما لم يستطع تصحيح طرحه، بتحديد أولويته الأساسية، ظل يخلط بين أطراف التناقض ومستوياته، مما أدى أحيانا إلى التخلي عن أحدها على حساب الأخر. وقد انتبه «الاخوان المسلمون» في مرحلة لاحقة إلى أن الأزمة سياسية، ولكنهم مع ذلك لم يتخلصوا من تأثير الطرح السلفي الأول.

وأخيراً، فإن الطبقة الوسطى في المجتمع العربي، في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، قدمت لنا تاريخا نرث منه إخفاقاته وعجزه ونهاياته ونتعامل معه ضمنيا وأحيانا صراحة باعتبار أنه : تحت ظل سيادتها وسيادة فكرها ساد الاستعمار.